قدر يلهو

بقلم

عبد المعطى المسيرى

أتم دراسته الجامعية ، وعاد الى مدينته «طنطا» ظافرا باجازة الحقوق ، ثم التحق بمكتب أحد كبار المحامين ، وشرع يمضى فترة التمرين بجد ونشاط .

وبينما كان ابوه الشيخ يعالج مشكلة العثور على مكان مناسب ، ويفرغ من ذلك ليأخذ فى تهيئة الاثاث اللازم لمكتب ابنه الحبيب.. بينماكان الوالد الشيخ يسعى فى اهتمام ونشوة ليمهد لولده شق طريقه ، كان القدر الساخر ينسج فى اكفان الشباب ويغزل فى ثوب آخر لحياة ابيه العجوز !

... وسرنا فى جنازة الابن والأسى يحز فى نفوسنا لا لفقد هذه الزهرة اليانعة فحسب ، ولكن لهذا الحزن الصادق العميق ، وهذا الوجوم القاتل الذى الح على الوالد المسكين حتى حال بينه وبين مواصلة السير مع المشيعين الى المقبرة ، فقد سقط فى منتصف الطريق فحمله بعض اقاربه ومعارفه . وعادوا به الى منزله وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة ، الامر الذى اذهل الناس وجعل للمصيبة وقعا اليما فى نفوسهم .

.. ودارت عجلة الزمن فطوت عامين كنت خلالهما مقيما بالقاهرة لا ازور «طنطا» الا لماما لقضاء بعض الشئون .. وفى زيارتى الاخيرة لها ذهبت الى عيادة صديقى الدكتور سامى صحبة قريب مريض ، وفيما نحن جالسون ننتظر دورنا اذ بى التقى فجأة بالشيخ التاكل ترافقه شابة فى ميعة الصبا يخرجان من حجرة الكشف ، ويبارحان العيادة ، ولكنى انكرته !! اننى اعرف الشيخ عبد المتعال الصاوى ذلك الرجل الذى كافح طويلا ليتيح لولده الحصول على اجازة الحقوق ، والذى استنفد فى هذا السبيل قواه .. اعرف ذلك الشيخ المنهدم الذى مانزال صورة سقوطه مغشيا عليه اثناء سير الجنازة مرتسمة فى ذهنى ، والذى كنت اقدر ان ايامه معدودة ، وان القدر قد قال فيه كلمته، اما هذا الرجل الذى اراه الآن يفيض حياة وحركة ، هذا الرجل الذى يرتدى ذلك الثوب القطنى الزاهى ، والرداء اللامع الفاخر ، ويبالغ فى التأنق ممسكا باحدى يديه عصا ، لاليتوكأ عليها ، وانما ليتحدى ويمعن فى ابراز رجولته .. انه

ليخيل الى ان الحيـاة قـد رجعت به عشرين عاما ، كانها قد انقصت من عمره اعوام ابنـه ، وعوضـته حيـوية الابن وصباه !! ثم من تكون هذه السيدة التى تصحبه !!

وهكذا قدر لى ان اذهل مرتين : مرة يوم وفاة ولده ، والاخرى عند رؤيتـه على هذا النحو .

... لم استطع كبت مايجول بخاطرى فاثرت موضـوع الشيخ مع صـديقى الدكتور سـامى ، وصـديقى هـذا هو الطبيب الذى كان يعود الشاب فى الايام الثلاثة التى قضاها مريضا قبل وفاته ، ثم هو الى ذلك على اتصال وثيق بالشيخ فلما استفسرت منه طفق يحدثنى بتؤدة وبساطة قال :

ياصاحبى ، ان هناك قـدرة الهيـة تصوغ مصـائرنا ، وتكيفهـا رغمـا عن ارادتنا وهـذه القـدرة العجيبة تمس برحمتهـا مايعترض سـبيلنا بفنـون واسـاليب مختلفة ، منهـا السلوان ، والنسيان ، وقلة المبالاة .. انها لاتاخذ الا وتعطـى ، ولاتمنـع الا وتمنـح وان ماأذهلك عند رؤيتك لهذا الشيخ التاكل ، هو بعينه الذى زادنى ايمانا بالله وعجيب صنعه ، لقد كنت بادىء الامر اركن الى حكم الناس فى ان معين حياته قد نضب فقد عدته اثر سقوطه فوجدت الصدمة عنيفة قوية لامناص من قضائها عليه اذا لم يحدث شىء غير مالوف ، اريدان اقول اذا لم تتدخل قوة خفية فى الامر ، وقد تدخلت .. وساحكى لك بايجاز شـيئا من مراحل حياته .

كان احمد الابن الوحيد الذى ابقى عليه الموت من اولاد الشيخ عبد المتعال اذ كانت المنية تتخطف ابناءه وهم فى طور الطفولة ، وكان الشيخ يلاقى الفجيعة اثر الفجيعة بصبر وايمان ، وكان احمد «آخر العنقود» كما كان يحلو للشيخ أن ينعته ، فامه لم تنجب بعده اطفالا ومن ثم كرس الشيخ حياته للابن قانعا به ، سائلا الله ان يبارك له فيه .

وهكذا نشأ احمد وترعرع بين احضان ابوين قدروعهما الموت كثيرا فكانا يسرفان فى العناية به ، والحنو عليه .. لايضيرهما ان يجوعا ما دام قد شبع ، ولا أن يظمأ مادام قد روى ، اذا انتابته وعكة بسيطة امسك الابوان قلبيهما من الذعر والهلع فاذا عادت اليه صحته ، عاد لهما الاشراق والسرور .

وراحت الايام تمضى والفتى يتنقل فى مراحل الدراسة ، فلما فرغ من التعليم الثانوى ، التحق بالجامعة ليكمل تعليمه حتى اذا آن للشيخ ان يتنفس ويجنى ثمار غرسه اذ بالموت ـ عدوه القديم ـ يطرق بابه ليفجعه فى امله الوحيد !

ولست فى حاجة الى القول بانى كنت اعود الشيخ اثناء مرضه بعد موت ولده ولكن الذى أريد ان اقوله اننى قدلمست انه يسترد عافيته بسرعة مطردة ، وان اساريره وحركاته كانتا تطفحان بمعانى ذلك القول اليائس : من شاء بعدك فليمت ـ فعليك كنت احاذر .

وكانت نظراته تفيض بالتحدى ، وكان يردد على الدوام ملوحا بقبضـة يده : لست اخشى شـيئا فليتزل بى القـدر مايشاء !!

وهكذا استطعت ان المح ان الشيخ قد آثر الاحتجاج على القـدر بالتحدى ، انْ

الخـوف المكبوت فى قلبه قـد تلاشى ، والحذر الذى كان يزعجه قد فارقه ، انه كان يخاف ويخشى من الاقدار على ولده ، ومادام أحمد قد مات فليس ثمة عزيز يخشى فقـده ، ويتوقى الحيـاة والاحداث من أجله ، انه كان لاينظر الى الحياة بعينيه ، وانما بعينى ابنـه .. كان اذا بليت ملابسه لايشعر بذلك مادام أحمد يبدو متانقا وجيهـا بين زملائه ، وكان اذا قتر على نفسه يجد لذة فى هـذا التقتير الذى سيحفظ التـوازن لرغد ابنه .. وكانت أم أحمد رغم تغضن جبينها ، وعبث السنين بجمالها ، وعدم استعدادها للحمل أثيرة لديه ، عزيزة عليه تبـدو له وضـاحة الجبين ، مبـاركة ميمونة لانها أسعدته بأحمد .. وهـكذا كان الشيخ لايرى الحياة الا من جانب واحد : جانب هـذا الابن الذى وهبـه نفسه واحاسيسه ، فلما اختار الله الفتى الى جواره انهار ذلك الستر الذى كان يحجب عن الرجل العالم جميعا فلا يراه الا من خـلاله ومن ثم اسـتهان بالامور

وراح يحتج على الحياة بتغيير كل ماتعود عليه .. بدا يجوع فلا يلتفت هل شبع ولده ؟ وانما يشعر بالجوع فيأكل ، وينظر الى ملابسه فلايفكر هل لبس احمد ، بل يمضى على الفور فيبتاع افخر القماش .. فاما ام احمد فقد بدت لعينيه على حقيقتها فاذا بها ليست اكثر من عجوز قبيح بلا جمال ، ولا ولد فيتزوج بأخرى ـ تلك التى رايتها معه ينشد عندها المتعة والولد .

وهكذا ياصاحبى بدا لك الشيخ وكانه ليس هو ، لقد انقضى عمر ابنه الشباب دون ان يشعر الوالد ، ولذلك فقد رجع الشيخ القهقرى واستانف حياته من جديد ، وبدا يتلقى الحياة غير حافل باحداثها .. وماذا بقى لديه حتى يحفل او يخشى !؟ لقد كانت ضربة القدر قوية فاصلة ، وامثال هذه الضربة تكون بمثابة نقطة التحول فى حياة المرء اذ يتلقاها ويحتج عليها باحد امرين : فاما ان تصعقه وتقضى عليه ، واما ان تخلق منه انسانا جديدا .. وقد اختار له الله الطريقة الثانية .

وسكت محدثى هنيهة فسالته :

ولكن اذا كانت القدرة الالهية قد تدخلت على هذا النحو فى حياة الاب فاستطاع ان يسلو وان يضطرب فى الحياة من جديد فيتجاوب معها هكذا ، فليس من شك انها قد قست على الام ، الام التى فقدت ولدها .. وزوجها .

فتبسم الطبيب وقال :

كلا ياصاحبى ، انى كنت على وشك ان احدثك حديثها ، انها احسن حالا من الاب .. لقد فقدت ولدها بادىء الامر فزعزت المصيبة كيانها ، فلما اردفتها المقادير بزواج الشيخ ذهب عقلها ، انها الآن تعيش بعقل طفل . ولو قيض اليك ان تراها وهى تلعب بالدمى تارة ، وبالكرة اخرى ، لآثار ذلك دهشتك اكثر مما اثارتها رؤية الشيخ .

فقلت : اتريد ان تقول انها جنت ؟!

فاجاب : لست انا الذى يريد ان يقول ، ولكنها جنت حقيقة ..!

قلت : وبعد هذا تتحدث عن عدل الاقدار ورحمتها !؟ اين العدل والرحمة فى امراة فقدت ولدها ورجلها .. وعقلها !؟

فربت صديقى الطبيب على كتفى وقال :

او ليس من الرحمة ان يسلب منها هذا العقل الذى يفكر ويشعر بمصيبة موت الولد ، وهجر الزوج ، ثم توهب عوضا عنه عقلا آخر يرتد بها الى الطفولة حيث لازوج ، ولا ولد ، فتلعب بالدمى والكرة !؟

ثم حدق فى وجهى وقال :

انى كطبيب لو استطعت ان استرجع لها صحة عقلها لما فعلت ، ذلك لانها الآن تقضى بقية ايامها موفورة الراحة والسعادة .